

## من التصادم إلى الحوار - رؤية مستقبلية-

د. عبد القادر بخوش

جامعة الأمير محمد القادر

يحدث تنازع حاد بين فكرتين جوهريتين، فكل واحدة تسعى لبسط نفوذها على الساحة الفكرية العالمية في ظل المتغيرات الدولية الجديدة.

أولاً - أبعاد نظرية التصادم بين الحضارات:

1- أصل النظرية ونشأتها:

اكتسبت نظرية التصادم بين الحضارات جاذبية ثقافية فريدة، فشهرتها ذات أصداء واسعة حيث كانت ولا تزال مثار جدل عنيف ونقاش ساخن داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها منذ ما يقارب من خمس سنوات. لقد حظيت بسيل طافح من الدراسات والتعليقات تتأرجح بين التأييد والشجب، ناهيك عما أقيم حولها من مؤتمرات دولية وندوات عالمية في أرقى جامعات العالم، جمعت صفوة الباحثين والخبراء. تُعزى أطروحة التصادم بين الحضارات إلى البروفيسور الأمريكي ذي الأصل اليهودي "صموئيل هانتنجتون" (SAMUEL P. HUNTINGTON) الذي نشر مقالته "صدام الحضارات" في مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية في صيف 1993م، وهي مجلة وثيقة الصلة بمراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.

ذاع صيت الأطروحة وصاحبها الذي آلت إليه مسؤولية إدارة معهد "جون أولين" للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد الشهيرة. وقد كان لتضلعه في الدراسات الاستراتيجية العسكرية وتفانيه في هذا النوع من التخصص وتألقه بصفة خاصة في الدراسات المقارنة في

مجال السياسة الأمريكية وسياسات دول العالم الثالث، أن أسندت إليه ما بين عامي 1977 و1978م رئاسة قسم التحليل والاستشراف بمجلس الأمن القومي الأمريكي<sup>1</sup>.

وقد أضفت سمعة صمويل العلمية وتاريخه العلمي كواحد من الاستراتيجيين، أهمية مضاعفة على أطروحته ذات العنوان الاستفهامي "هل هو صراع بين الحضارات؟" تقوم أطروحة التصادم بين الحضارات على أن الصدام بين الحضارات هو الذي سيهيمن على السياسة الدولية ويشكل الحلقة الأخيرة من تطور الصراع في العالم الجديد، باعتبار أن الانقسامات الكبرى بين بني البشر، وبؤر التوتر سوف تكون ثقافية في الأساس.

يقول "صمويل هانتنجتون": «والفرض الذي أقدمه هو أن المصدر الأساسي للتراع في هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول، فالانقسامات الكبرى بين بني البشر ستكون ثقافية، والمصدر المسيطر للتراع سيكون مصدرا ثقافيا، وستظل الدول الأمم هي أقوى اللاعبين في الشؤون الدولية، لكن المنازعات الأساسية في السياسات العالمية ستحدث بين أمم مجموعات لها حضارات مختلفة، وسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية. ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل، وسيكون التراع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في تطور التراع في العالم الحديث»<sup>2</sup>.

ويعتقد "صمويل هانتنجتون" أن الهوية الثقافية ستكسب مزيدا من الأهمية في المستقبل، وستشكل العالم بقدر كبير نتيجة للتفاعل بين سبع أو ثمان حضارات فاعلة، وستحدث أهم المنازعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى<sup>3</sup>. ولتعزيز فكرته هذ، وزيادة في تدعيمها، يورد "هانتنجتون" مجموعة من العوامل، من أهمها:

<sup>1</sup> - محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، يونيو 1997م)، ص 93.

<sup>2</sup> - مني واصف، الغرب والإسلام، على حاشيته صمويل هانتنجتون، هل هو صدام بين الحضارات، (القاهرة، دار جهاد للنشر والتوزيع، ط 1، 1981م)، ص 175.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 176.

شكلت الفروق بين الحضارات الخطوط الفاصلة الجوهرية، وبأقي الدين في طليعة هذه الفروق، وتاريخ الشعوب شاهد على أن هذه الفروق زجت بالحضارات في أطول المنازعات وأشدّها ضراوة. بعد أن أضحي العالم صغيراً، باتت التفاعلات بين شعوب الحضارات في التفاهم، وأسفرت هذه التفاعلات على ارتفاع درجة وعي الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بين الحضارات. تهدف الإجراءات الاقتصادية الحديثة وسياسات التغيير الاجتماعي الجارية إلى فصل الشعوب عن هويات محلية، علاوة على إضعاف الدولة القطرية، وفي جزء كبير من العالم تحرك الدين ليملاً هذا الفراغ على شكل حركات عرفت بالحركات الأصولية. فإحياء الدين يوفر أساساً للهوية والتزاماً يتجاوز الحدود القطرية، ويوحد الثقافات.

يتفاهم الوعي الحضاري جراء الدور المزدوج الذي يقوم به الغرب، فمن جهة يمتلك الغرب ناصية القوة والنفوذ في الوقت نفسه، وربما نتيجة لهذا الواقع تلوح في الأفق صيحات تدعو إلى العودة إلى جذورها الحضارية الخاصة.

فلا غرو إذن أن نجد في الوقت الراهن غرباً في أوج قوته، بات يجابه في الوقت نفسه أطرافاً غير غربية يحدوها الأمل في تشكيل العالم وفق أساليب غير غربية، لا تنقصها الإرادة والإمكانات لتحقيق ذلك<sup>1</sup>.

وانطلاقاً من افتراضه أن الاتجاه الجديد للسياسة العالمية في المستقبل سيمثل في الصراع بين الغرب وبقية العالم، وردود فعل الحضارات غير الغربية على السلطة والقيم الغربية. يتوقع صموئيل أن بؤرة مركزية للصراع في المستقبل سوف تكون بؤرة صراع بين الغرب من جهة وبين عدد من الدول الكونفوشية والإسلامية من الجهة المقابلة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 178-179.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 198-199.

ويخلص المفكر الأمريكي إلى أن مصلحة الغرب على المدى القصير تكمن في العمل على تحقيق قدر أكبر من التعاون والتعايش داخل حضارته، خاصة بين العنصرين الأوروبي والأمريكي الشمالي، وإدماج مجتمعات قريبة لثقافات الغرب في كل من أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية، وتوطيد علاقات التعاون مع كل من روسيا واليابان، ومنع تصاعد النزاعات المحلية داخل الحضارات إلى حروب كبيرة، والحد من توسع القوة العسكرية للدول الإسلامية والكونفوشيوسية، واستغلال الخلافات والنزاعات بين هذه الدول فيما بينها، وتقديم المساعدات للمتعاطفين مع القيم والمصالح الغربية في الحضارات الأخرى، وتقوية المؤسسات الدولية التي تعكس المصالح والقيم المشروعة للغرب<sup>1</sup>.

أما على المدى الطويل، فيشدد على أهمية قيام الغرب باحتواء الحضارات غير الغربية الحديثة، التي باتت قوتها قريبة من قوته، وإن كانت قيمها ومصالحها تختلف بصورة كبيرة عن قيمه ومصالحه، وهو ما يقتضي من الغرب أن يحتفظ بقوته الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه بالنسبة لهذه الحضارات.

وعليه أن يكتسب فهما أعمق للتفاعلات الدينية والفلسفية الأساسية التي تحدد البنية التحتية التي تقف عليها الحضارات، والطريقة التي ترى بها شعوب هذه الحضارات مصالحها<sup>2</sup>.

## 2- تأصيل العنصرية

إن المتأمل لأطروحة صدام الحضارات يلمس تلك الفكرة الباطنية التي ييشها هانتنغتون في نظريته، وهي أن الأمر سينتهي حتما بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية، كما كان الحال -وفق زعم هانتنغتون وآخرين- طوال ألف وثلاثمائة عام<sup>3</sup>.

والمقال لا يطرح هذه الفكرة مباشرة، بل يبدأ بإقرار مبدأ النهوض الحضاري في شتى بقاع العالم، حيث يزداد الوعي بالذات لدى كل مجموعة بشرية تجمعها عناصر موضوعية مشتركة،

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 201-202.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 202.

<sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 184.

ومع تنامي هذا الوعي تنشأ عملية التمايز عن الآخر، وربما الاختلاف معه، نتيجة وجود فروق ليس فقط حقيقية، وإنما أساسية لا يمكن تجاهلها.

وبعد استعراضه للأسباب التي تدفعه لتوقع مرحلة من صراع الحضارات يتحول مقال هانتنغتون إلى بحث معنيّ الغربي الإسلامي الذي يراه النتيجة النهائية لما يسميه بالاصطفاء الحضاري، الذي أفصح عن نفسه في حرب الخليج. شأنه في ذلك شأن جميع المقالات المتشجعة التي لا هم لها إلا إثارة ما يُعرف بالإحياء الإسلامي وتهديده للغرب وحضارته. ومع أنه يرى إمكانية احتواء كثير من البلدان المنتمية إلى حضارات غير غربية، وراغبة في الانضمام إلى الحضارة الغربية مثل المكسيك وكثير من البلدان اللاتينية<sup>1</sup>. فإنه بالمقابل يرى أن البلدان الإسلامية التي عبرت عن رفضها للحضارة الغربية، واستغلت في رأيه آليات الديمقراطية الغربية للتعبير عن رفضها للغرب، يصعب أن تندمج مع حضارته، ولكنها بإمكانها أن تتعاون مع حضارات أخرى رافضة للغرب، مثل الكونفوشوسية، التي تختار لها نموذجين هما الصين وكوريا الشمالية<sup>2</sup>.

إن "هانتنغتون" ينطلق من فكرة جوهرية أن الصراع سيكون حلقة تمر بها الحضارات في قمة نموضها حتى تصل إلى مرحلة التعايش الذي يدرك خلالها كل طرف أن العالم لا يمكن أن يكون حضارة واحدة متجانسة، وإنما هو مكان التقاء عدة حضارات، وإن كان هانتنغتون لم يعن بتأكيد أن هذه النهاية ستسحب أيضا على الصراع الغربي الإسلامي، بقدر ما عني بتخصيص الجانب الأكبر من المقالة للمرحلة الصراعية بين الغرب والإسلام.

وهنا يتضح بأن الفكرة الباطنية التي ييئها هانتنغتون أن الأمر سينتهي بصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية، كما كان الحال حوالي 1300 سنة.

<sup>1</sup> - المرجع نفسه، ص 195.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 198-200.